

## أمهات المشكلات الاجتماعية

### مشكلات الأسرة

للدكتور محمد غلاب أستاذ الفلسفة بالأزهر

تمهيد :

تعددت في هذا العصر المشكلات الاجتماعية وتشعبت فروعها واتسعت جوانبها ، وسيزداد كل ذلك امتدادا وتعقدا كما نمت المدنية وسطعت أضواء العلم والعرفان في الزوايا التي لمساتل مظلمة من العقول البشرية . وهكذا يصبح حل تلك المشكلات الاجتماعية وقهرها والتخلص من أسوأها الحادة من الصعوبة والعسر ، وكان بقدر تلك التشعبات وإذا كانت هذه الصعوبة أمرا محققا كانت مهمة المسؤولين الرسميين — كوزارة الشؤون الاجتماعية مثلا — شاقة ، بل خطيرة . فأما مشقتها فهي نخم عن شدة سهرهم على معالجة هذه المشكلات المترامية الأطراف ، وأما خطرها فينبغي أن يكون حافزا لهم على وجوب العناية باختيار الأفراد الذين توكل إليهم معالجتها إلى حد التردد وطول الأناة ، لأن الأقدام التي تترجم عن عقول غير متبته من ممارفها تنج شبر النأنج ولو كانت مرسله في طلب الخير المحض ، إذ الجهل خير من نصف العلم كما تقولون .

لذلك نحن نوجب على أنفسنا — قبل أن نوجب على غيرنا — أن نسير في هذا الطريق الشائك الوعر سير الحذر المتمهل الذي يحدد لكل خطوة موضعها قبل أن يخطوها تقديرا منا للسوالية الثقيلة المنفأة على عاتقنا حين نعرض لمعالجة بعض المشكلات الاجتماعية خصوصا في هذه الظروف القاسية التي تحدق بنا الان ونحن نجتاز مرحلة من أخطر مراحل التطور والانتقل .

غير أنه لا ينبغي أن هذا الحذر وذلك الاحتياط يحولان بيننا وبين اقتحام هذا البحر اللجج من المشكلات مهما كنا على يقين من أنه يفتشاه موج من فوقه موج من فوقه سحب ، وتكتفه ظلمات بعضها فوق بعض بل يجب علينا أن نساهم في تشييد تلك الممارات التي لنا موطن الأمل في أن تعظم مع الزمن حتى تصير كافية لإرشاد سفن الحياة الاجتماعية بمصر واقتيادها إلى شاطئ السلام والأمان ، ل إلى مرقا الفوز والانتصار .

واند شئنا أن نبدأ بحوثنا هذه بمعالجة مشكلة الأسرة معالجة علمية مؤسسة على أدق ما وصل إلينا من آراء أساطين الاجتماع في العصر الحديث ، معلقين عليها بما يمين لنا من فكر شخصية مرحجين بالقد أصدق ترجيب ، لأن تابتنا المنلى هي الوصول إلى الحقيقة في ذاتها أولا ، وتحقيق أجل نواحي السمو الاجتماعي في مصرنا العزيزة ثانيا .

أما حكمة بدئنا بمشكلة الأسرة فهي واضحة ، إذ أن الأسرة هي اللبنة الأولى في بناء المجتمع ، والخلية الأساسية في جسمه إذا نظرنا إلى التكوين ، وهي قلبه النابض إذا نظرنا إلى الاحتفاظ بالحياة ، وهي محوره إذا نظرنا إلى دوام الحركة والنشاط . وفوق هذا كله فإن الأسرة هي الصورة الأمينة للدولة ، أو المرأة التي تنعكس عليها هويتها كما هي ، أو اللسان الصريح الذي يترجم عما يكتنه فؤادها . وقصارى القول هي كما وصفها العالم الاجتماعى الفرنسى دوركيم بقوله :

” إن الأسرة هي مجتمع كامل يمتد أثره إلى نشاطنا الاقتصادى كما يمتد إلى نشاطنا الدينى والسياسى والعلمى وما شاكل ذلك ، وإن كل ما نعمله من أعمال هامة ولو قليلا هو صدى من أصدائها “ .

إذا كان للأسرة كل هذا الشأن وكان كل ما يأتية المجتمع من أفعال لا تندرج أنواعها تحت حصر ولا يَحْتَمِلُها عد ليست إلا ثمار غرسها ، أو أصداء أصواتها على حد تعبير دوركيم ، فقد كان من الطبيعى أن نبدا

بمحاولة معالجة مشكلتها ، ولكن لا ينبغي أن يفهم من كلمة الأسرة ذلك الإطار الضيق الذى يتبادر إلى الذهن للوحلة الأولى ولذى لا يدرك السواد الأعظم تعريفا لها غيره . كلا ، فليس ذلك إلا جانباً ضئيلاً من جوانب الأسرة الاجتماعية التى نود أن ندرسها هنا دراسة علمية مؤسسة على تاريخ الجماعات البشرية منذ نشأتها البدائية إلى العصر الحديث .

ولقد أردنا أن نقسم هذا البحث إلى ثلاثة أقسام : ندرس في القسم الأول منها نشأة الأسرة ونتتبع تطوراتها المختلفة التى تعاقبت عليها خلال هذه القرون الطويلة ، ونبرز الفروق بين المظاهر المتباينة التى خلعها عليها لزمان فى عصوره البعيدة المدى . وتتناول فى القسم الثانى كيان الأسرة ونظرات الأجيال المتعاقبة إليه ، وما احتدم بين أهل تلك الأجيال من مجادلات حول معضلات ذلك الكيان : كالطلاق وتعدد الزوجات والميراث وما شاكل ذلك . ونعنى فى القسم الثالث بالدور الذى قامت به الأسرة ولا تزال تقوم به فى حياة الفرد ثم فى حياة الدولة ، بل فى حياة لمجتمع كله . وإليك التفصيل :

## ١ - نشأة الأسرة وتطوراتها ونماذجها المختلفة

### (١) نشأة الاسرة وتطورها :

يُعدُّنا التاريخ وعلم السلالات البشرية بأن الصلات التى وثقتها الطبيعة بين أفراد الأسرة<sup>(١)</sup> قد بدت على ممر العصور ولا تزال تبدو عند مختلف الشعوب فى عدد هائل من الصور المتباينة والمظاهر المتعارضة ، فثارة نجد بين أفرادها قرابة أبوية نحسب ، وأخرى نشاهد فيها

(١) لا فرق فى ذلك بين الأسرة بمعناها الضيق الذى لا يتناول إلا الزوجين والأولاد ، والأمرة بمعناها الواسع

الذى يشمل جميع الأما رب على نحو ما سنبين ذلك المعبين فى موضعهما .

قربة أموية ليس غير ، وثالثة نرى فيها قرابة من الجانيين ، ورابعة تقف فيها برزاة تعدد الزوجات ، وخامسة تلقى أنفسنا أمام توحيد الزوجة ، وسادسة نتقى فيها بالزواج المشترك أو الزواج الاشتراكي كزواج جميع الأخوات برجل واحد — كما يوجد في بعض مناطات الصين أو كزواج جميع الإخوة بامرأة واحدة — كما يحدث في نجد تبث ، وسابعة تثر فيها على الزواج المؤقت أو الذي يباح فيه الطلاق ، وتامنة تصادف فيها الزواج الأبدي الغير قابل للتحلل ، وغير ذلك من الإصلاحات التي يسببها البعض أنظمة ويستكثر عليها البعض الآخر هذا الاسم الذي لا ينبغي أن يطلق إلا في حالات التقنين والتثبيت . ولا جرم أن الباحثين المحدثين عندما وقفوا أمام هذا المنظر المعتمد حارت ألبابهم وتردأت أقدانهم ، وأخيرا أقدموا بعد الإحجام على بدء مذاهبهم بنظريتين : فأما أولاها فهي ما نستطيع أن نسميه بنظرية الثبات أو الاستقرار ، وشمائلها أن النموذج البدائي العام ، بل الطبيعي الأوحده ، هو الأسرة المؤلفة من زوج وزوجة وحيدة وأبناهما على نحو ما هو سائر في أوربا في العصر الحاضر ، أي أن هذا النموذج العصري هو الذي احتفظ بصورته البدائية احتفاظا تاما تقريبا واجتاز الأخطاء الاجتماعية والآنام الأخلاقية التي اقترتها الإنسانية خلال العصور المتتابعة ، إذ أن جميع الصور الأخرى التي ظهرت فيها الأسرة على مسرح الحياة مبينة لهذا النموذج البدائي والعصري . وروى ليست إلا فسادا في الطبيعة وانحرافا عن النظرة وضلالا عن الصراط السوي . ومن أشهر العلماء الذين صدعوا بهذه النظرية وداوموا عنها دفاعا قويا مجيد الفيلسوف الفرنسي دي بونالد ، وهو في هذا يقول :

”إن النوع البشري قد ابتدأ وجوده بأسرة واحدة ، وبرهان ذلك محسوس ، وهو أن بقاءه يستمر بوساطة أسر ، وأنت لو فرضنا أنه لم يبق منه إلا أسرة واحدة لكانت كافية في تكوين المجتمع من جديد“ .

ومن أنصار هذا الرأي الذين تأثروا بدي بونالد تأثرا واضحا العالم الاجتماعي الفرنسي ”لي بليه“ وتلاميذه والعلمان الإنجليزيان ، سوهنيرمين ، وستيرمارك .

أما النظرية الثانية المعارضة للأولى وهي نظرية الاختلاء *Lat h esedel. promiscuite* فؤداها أنه لم يكن في مبدأ الإنسانية إلا اختلاط فوضوي بين الجنسين ، وأن العلاقة بين ذكور البشر وإناثهم كانت على أتم ما يكون من الحرية ، وعلى الإجمال لم يكن هناك أي وجود لما ندعوه الآن بالأسرة . ومن أشهر أشياح هذه النظرية العلماء : لوبوك وباشوفين ، ومورجان .

هذا هو موجز النظريتين المتعارضتين . ورى علماء الاجتماع المعاصرون أنهما كتبهما خاطئتان لإفراطيهما في المغالاة ، ويعتقدون أن الحق في هذه المتضلة هو أن الأسرة لم تنشأ بادئ ذي بدء على الصرورة التي هي عليها في العصور الحديثة في أوروبا ، كما يدعى أصحاب الرأي الأول ، وهم يجزمون بأن كثيرا من عناصر الصرورة الحالية للأسرة هي محدثة

نسبياً ، ولكنهم يرون كذلك أن الإنسان البدائي قد عرف الأسرة وارتبط بروابطها منذ نشأته ، إذ من الزيف أن يقال إن الجماعات المحيطة بعيدة عن القواعد ، طليقة من القوانين فلا تتر في تلك الجماعات خاضعة لقوانين قاسية وتقاليد ضيقة ثقيلة الحمل كما سنرى أثناء مرورنا - مع علماء الاجتماع - بالنماذج المختلفة للأسرة .

### (ب) النماذج الأساسية للأسرة :

١ - الكلان التوتيمى <sup>(١)</sup> La clan to tique - يرى أنصار الأبى المعتدل الذى أسلفناه آنفاً من علماء الاجتماع العصريين أن أولى الصور البدائية للأسرة بمعناها الواسع هي الكلان التوتيمى أى الجماعة التى تألفت من أفراد يعتبر كل منهم الآخرين أقارب له ، ولكنهم جميعاً لا ينظرون إلى هذه القرابة إلا من حيث إنها هي الرابطة بين الجميع وبين هذه القداسة الأبوية العليا ، وهم يفضون عن كل ما عدا هذا الاعتبار من صلوات القرابة . أما التوتيم نفسه فهو كائن حي أو شيء مقدس ، وهو فى أغلب الأحيان حيوان أو نبات يحمل الجماعة أن تدعى بأحد أركانها اسم الذى هو رمزها الأوحد ، وهى فوق ذلك تعتقد بأنها تدهم فى طبيعته مساهمة تختلف سرية وغموضها كثيرة وقلة باختلاف ظروف تلك الجماعة وأحوالها . فإذا كان هذا التوتيم ذئباً مثلاً فإن جميع أفراد الجماعة يعتقدون أن جدهم الأعلى ذئب ، وأن فيهم جميعاً شيئاً من الذئبية . ولهذا هم يدعون أنفسهم بالذئاب .

تعتبر إذا هذه الجماعة أسرة مؤلفة من أقارب وإن كان أفرادها لا ينظرون إلى هذه القرابة إلا من ناحيتها المعنوية المقدسة . فحسب ، كما أسلفنا . أما الصلوات الدموية فهم لا يعتبرونها ولا يعاونون على تيميتها ، بل بالعكس هم يضعفونها ويحدون فى مجوحها ، إذ يحظرون المصاهرة بين أفراد الجماعة .

يوجد التوتيم عند الجماعات البدائية فقد عثر العلماء على آثاره فى الأزمان الغابرة عند سكان .

الكهوف ، كما التقوا به لدى الأمم القديمة المتمدينة قبل تاريخ مدنيتهما ، وهم لا يزالون يجدونه الآن بارزاً ملموساً عند الشعوب التى ربطت بينها روابط التناحر والانحطاط وإن لم تجمها صلوات الجنس أو اللغة أو المكان وذلك من فصل سكان أستراليا الأصليين ، وحرى أمريكا الشمالية ، وهنود أمريكا الجنوبية ، وياكوت اسيريا ومن إليهم .

يسوق الاجتماعيون العصريون للتدليل على أن هذه الجماعات المنفردة فى الانحطاط كانت خاضعة لقواعد قاسية برهانا واضحاً وهو تلك الظاهرة العامة لدى جماعات الكلان

(١) نلاحظ هنا بيان الكلتين الفرنسين لأننا لم نجد لها مقابلين دقيقين فى أمة العربية ، إذ معاً الجماعة البدائية التى يقدس أفرادها حرواناً أو شيئاً لاقتادهم أنه جدهم الأعلى الذى أخذوا منه ، وقد ترجمنا أولهما وهى : الكلان فى مواضع أخرى بالقبيلة أو العطن أو العذ ولكننا هنا اصطلاح فى علماء الاجتماع فلا يمكن أن تودى معناها إحدى تلك الكلمات الثلاث السابقة .

التوتيمى ، وهى خطر 'تراوج بين أبناء الجماعة' الواحدة وبناتها ، واعتباره جريمة وجعل الإعدام عقوبة لمرتكب هذه الجريمة . وهم يعاقبون على هذه الظاهرة بقولهم : من هذا يدب زيف انزعج القتال بأن الجماعات البدائية خاضعة لرغباتها وغرورها بحسب ، ولا تقيد بقوانين لمة كقطعان احيوانات .

٢ - الأسرة الأموية - لدينا من الأسباب العلمية ما يجعلنا على مسأرة العلماء : موريه ، ودافى ، ولانج ، فى دعوى أن التوتيم كان فى المبدأ ينتقل من جيل إلى جيل بواسطة السلسلة الأموية وحدها ، أما اليوم فهو لا يقتصر على هذه السلسلة وإن كنا لا نزال نجد هذه الظاهرة سائدة فى عدد من الجماعات المحيطة ببعض سكان أمريكا الجنوبية . وكيفية هذا الانتقال أن الطفل كان لا يحمل إلا اسم جده الأموى ، وبالتالي كان لا ينتسب إلا إلى توتيم أمه . ومعنى هذا أن الجماعة كانت مؤلفة من الأفراد المنحدرين من نساها . فحسب ، أما الزوج - وهو أجنبي قطعاً - فقد كان ينتقل إلى مقر أسرة زوجته يعيش معها فى صف أدنى من صفها ، بل إنه كان أحياناً يرفع جرية إلى أسرة زوجته وينزل لها عن جزء من حيدته ، وأما أولاده فلا يحملون اسمه ولا توتيمه الخاص ، وإنما هم يحملون اسم أمهم وتوتيمها كما قلنا .

على أنه لا ينبغي أن نخلط بين هذه الحالة وبين الظاهرة الاجتماعية الأخرى التى حدثت لدى بعض الجماعات المستمتعة بحظ من الرقى وهى ظاهرة نظام الماترياركا

الذى كانت فيه المرأة مستمتعة بسططان وسيادة حقيقيين ، إذ أن السلطان فى الجماعات التوتيمية لم تكن للمرأة نفسها ، وإنما كان لأسرتها ومنزوله العملى هو أخوها أو خالها الذى بيده كل السلطة ، أما المرأة ذاتها فانها - فصلاً عن خلوها من السلطة خلوا تماماً - كانت فى أغان الأحياء مبينة محقرة تلاقى من سوء المعاملة مالا طاقة لها باحتماله .

٣ - من الأسرة الأموية إلى الأسرة الأبوية - غير أن هذه الظاهرة لم تلبث أن تطورت تدريجاً - شأن كل ما فى الوجود - فبدأ الأب يحسن بما فى موقفه هذا من ضعة ومهانة بفضل يعتدب إلى ذاته شيئاً من السلطان ، وقد نجح فعلاً فنقل زوجته إلى حيث تعيش أسرته ، وقد اقتضى هذا أن ينشأ أولاده بين عشيرته وإن كانوا قد ظلوا أول الأمر ينتسبون إلى توتيم أمهم إلا أنه كان من طبائع الأشياء أن تضمحل الصلة الأموية مع الزمن وأخذت الصلة الأبوية فى الطغيان عليها شيئاً شيئاً حتى انتهى الأمر بانتقال الأولاد إلى اسم أبيهم وتوتيمه ، وهكذا حل الانتساب إلى الأب محل الانتساب إلى الأم ووجد نظام البنوة المعتمد على السلسلة الأبوية وحدها ، ذلك النظام الذى ساد الشعوب المتقدمة فى الشرق والغرب الأخرين وإن كانت صورته مختلفة ومظاهره متباينة بتباين ظروف تلك الشعوب من المدنية .